المحاضرة الثالثة عشرة: رشيد سيدي بومدين وتاريخ مدينة الجزائر من خلال فن الخزف

شهد فن الخزف ازدهارًا ملحوظًا في الأندلس خلال الحقبة الأموية، واستمر تطوره حتى بعد سقوط الدولة الإسلامية هناك. وقد ظهرت أساليب فنية جديدة تحت مظلة "الفن المدجّن". ومع هجرة المسلمين الأندلسيين إلى مناطق مختلفة، حملوا معهم هذا الإرث الفني الغني، ليجد مكانه في العديد من البلدان، بما في ذلك الجزائر، التي أصبحت واحدة من المراكز البارزة للحرف التقليدية المستوحاة من الحضارة الأندلسية.

في كتابه الجديد "خزف مدينة الجزائر: تاريخ قائم بذاته" الذي صدر عن دار "منشورات آناب"، يأخذنا الباحث في علم الاجتماع رشيد سيدي بومدين في رحلة عبر الزمن إلى قلب حي القصبة العريق، الذي شُيد منذ القرن العاشر الميلادي. يوثق سيدي بومدين، بأسلوبه الفريد، عشق سكان العاصمة للخزف الذي يزين جدران منازلهم الداخلية وساحاتهم الوسطية، المعروفة محليًا باسم "وسط الدار". كما يسلط الكاتب الضوء على العلاقة العميقة بين سكان المدينة وفنون العمارة والزخرفة، مع تركيز خاص على الفترة الممتدة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، وهي مرحلة شهدت تحولات معمارية كبرى في تاريخ الجزائر.

الخزف كمرآة ثقافية واجتماعية:

يعتبر الخزف جزءًا أساسيًا من البيوت القديمة في العاصمة، سواء كعنصر زخرفي مستقل أو كجزء من العمارة الداخلية والخارجية. يظهر هذا الفن في شكل "الزلّيج"——وهي قطع خزفية صغيرة ومتعددة الألوان تُستخدم في التزيين. المؤلف يولي اهتمامًا خاصًا لهذا الفن، حيث خصص فصلًا كاملًا لدراسة أنواعه وتقنياته وأساليب إنتاجه، بالإضافة إلى الدول التي اشتهرت بتصنيعه، مما يجعل الخزف شاهدًا حقيقيًا على حقبة مهمة من تاريخ الجزائر.

من الناحية الجمالية، يبرز الكتاب أهمية التناظر الهندسي في تصميم الزلّيج، حيث تتداخل الأشكال الهندسية المعقدة مع عناصر طبيعية مستوحاة من الزهور والنباتات، إلى جانب الزخارف الحروفية المستلهمة من الخط العربي. ومن خلال تحليل هذه التفاصيل الفنية، يفتح المؤلف النقاش حول قضايا أوسع، مثل تأثير التجارة والسياسة على انتشار هذا الفن في الجزائر، وعلاقته بالروابط الاقتصادية والثقافية مع بلدان البحر المتوسط، خاصة إسبانيا، تركيا، وإيطاليا.

بين الاستيراد والتأثيرات الخارجية:

يلاحظ الباحث أن الجزائر، رغم غناها بالحرف التقليدية، لم تشهد إنتاجًا محليًا واسعًا للزلّيج، حيث كان يتم استيراده من دول مثل تونس وإيطاليا وإسبانيا وتركيا. ويعزو ذلك إلى جذوره الشرقية التي تعود إلى الصين وبلاد الأناضول، قبل أن ينتقل إلى الغرب الإسلامي عبر الأندلس. كما يرى أن انتشار الخزف في منازل العاصمة كان يعكس المكانة الاقتصادية والاجتماعية لسكانها، خاصة لدى طبقة الأعيان وكبار التجار والبحارة، الذين كانوا يسعون لاقتناء أفخر الأنواع لإضفاء لمسة من الفخامة على قصورهم.

الزلّيج كهوية معمارية:

في تقديمه للكتاب، يسلط الباحث في التاريخ والتراث عبد الرحمن خليفة الضوء على أن هذا العمل لا يقتصر فقط على تقديم معلومات تقنية حول صناعة الخزف، بل يهدف أيضًا إلى إبراز دوره كعنصر أساسي في العمارة المحلية خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر. ورغم أن الزلّيج لم يكن مقتصرًا على مدينة الجزائر، إلا أنه أصبح عنصرًا مميزًا يفرقها عن باقي مدن البلاد. ومع ذلك، فإن تراجع استخدامه في العصر الحديث لصالح مواد البناء الحديثة مثل الإسمنت والطلاء جعله يمثل نوعًا من الحنين إلى زمن كان أكثر بساطة وأناقة.

الدوافع الشخصية والعلمية للمؤلف:

رشيد سيدي بومدين لا يقتصر اهتمامه بالخزف على الجانب الأكاديمي فحسب، بل يبدو أن لديه ارتباطًا شخصيًا عميقًا بهذا التراث. نشأ في حي المدنية بالعاصمة، حيث تتشابه العمارة القديمة مع تلك الموجودة في القصبة، مما أضفى على عمله بُعدًا وجدانيًا بجانب منهجه البحثي. وبفضل خبرته في مجال العمران وعمله في عدة مؤسسات جزائرية ودولية، كرس جهوده لدراسة وتحليل التراث المعماري للجزائر. من خلال هذا الكتاب، يقدم رؤية شاملة تمزج بين التاريخ والفن والهوية الثقافية.

لذا، يمكن اعتبار كتاب "خزف مدينة الجزائر" مرجعًا مهمًا لكل من يهتم بتاريخ العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية. فهو يعكس كيف كانت منازل العاصمة الجزائرية بمثابة لوحات فنية نابضة بالحياة، تحكي عبر جدرانها قصص الأجيال الماضية، وتحتفظ بين ألوانها بأسرار الحضارات التي تعاقبت على هذه المدينة العريقة.